

البوغوميليون والمسيحيون والبوسنة

لطيف المعوش

البوغوميلية حركة دينية، اجتماعية وسياسية بلغارية، قامت في القرون الوسطى بعد أن ظهرت في بداية القرن العاشر، وانتشرت في شبه جزيرة البلقان ومعظم بلدان آسيا الصغرى وإيطاليا وفرنسا ولكن بأشكال مختلفة. وكانت قد توغلت أولاً في أجزاء الامبراطورية البيزنطية، حيث وجدت عدداً كبيراً من الأنصار والمؤيدين⁽¹⁾. وفي نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر عرفت العاصمة البيزنطية تجمعات للبوغوميلية. وقد دُعي هؤلاء الهرطقة بالتسمية البلغارية - البوغوميليون - إلى جانب لقب حَمَلَة الكيس والمهرجين. وكان تشابه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة في كل من بلغاريا والامبراطورية البيزنطية، قد ساعد على انتشار حركة البوغوميلية في أرجاء تلك الامبراطورية في تلك الفترة. وقد عمل البوغوميليون على تحريض السكان ضد السلطة الأجنبية التي تسيطر عليهم. ومد البوغوميليون نشاطهم خارج الامبراطورية البيزنطية. فالشعارات التي طرحها هؤلاء ضد الكنيسة والدولة، حاميتي النظام الاجتماعي والاستغلال الإقطاعي، استقطبت أوسع الفئات الشعبية. وفي القرن الثاني عشر نفذ البوغوميليون إلى صربيا، حيث كانت سيطرة الأمراء الإقطاعيين. وفي أيام الملك الصربي جوبان ستيفن نومان، كانت الهرطقة قد قويت وهذا ما استدعى التحرك السريع للمواجهة. وفي الاجتماع العام الذي عقد في تلك الأثناء، وجهت اللعنة والحرّم للهرطقة

الذين تعرضوا للتعذيب⁽¹⁾. وفيما بعد أصدر ستيفان دوشان قانوناً يحدد العقوبات الخاصة بهم⁽²⁾.

وبالرغم من المطاردة التي تعرض لها أتباع البوغوميلية وأنصارها، فإنها بقيت صامدة. لا بل استمرت بالانتشار في أنحاء صربيا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وهنا أصبحت الأراضي الصربية ممراً لكي تنتقل الهرطقة باتجاه الغرب.

ففي الأجزاء الغربية من شبه جزيرة البلقان - خاصة في البوسنة والهرسك ودالماسيا - وجد البوغوميليون تربة خصبة لهم. وتمكنوا من إقامة حركة منظمة قوية عرفت باسم «الكنيسة البوسنية»⁽³⁾، التي لعبت دوراً مهماً كمركز للهرطقة في أوروبا خلال القرون الوسطى. فقد أطلق على هؤلاء الهرطقة في البوسنة إلى جانب «البوغوميليين»، «كودوغيري» و «باتاريني».

وفي نهاية القرن الثاني عشر، انتشرت البوغوميلية بكثافة في البوسنة وذلك زمن بان كولين (1180 - 1204) وخلفاؤه من بعده. وبالرغم من الجهود الكبرى التي بذلتها الكنيسة الكاثوليكية المدعومة من ملوك المجر وغيرهم من الحكام من أجل القضاء على «البوغوميلية البوسنية»، فإنها استمرت حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث وقعت البلاد البوسنية وغيرها من الأراضي البلقانية تحت السيطرة العثمانية.

كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السيئة مناسبة لقيام مثل هذه الحركات في كل من بلغاريا وصربيا وفي المناطق التي تدخل في إطار الامبراطورية البيزنطية. ذلك أنّ شيوع العلاقات الإقطاعية في المجتمع وحتى داخل

(1) نوافكوفيتش. س.، قانون ستيفان دوشان - ملك صربيا - بلغراد 1898، ص 14 - 67.

(2) د. انغلوف، البوغوميليون في التاريخ السلافي وأثرهم على أوروبا الغربية، المجلة الفلسفية، عدد 5، صوفيا 1963، ص 17.

(3)

الكنيسة جعل موجة السخط والغضب تعم صفوف السكان. فالمعركة هنا موجهة ضد الكنيسة الكاثوليكية وكانت ترتد صراع قديم يعود تاريخه إلى أواسط القرن الحادي عشر. ففي البوسنة والهرسك ودالماسياً كانت لا تزال حية في الأذهان أفكار وآراء الأخوان كيريل وميثودي⁽¹⁾. وكان رجال الدين المحليين، يستعملون اللغة السلافية في صلاتهم، لأن الكنيسة الموجودة استطاعت أن تحافظ على استقلالها عن الكنيسة الكاثوليكية في روما⁽²⁾. وهذا كان يفترض مواجهة عنيفة معها، لفرض مرجعيتها العليا ولاستئصال الدعاية السلافية. فالكنيسة الكاثوليكية في روما، لم تستطع تدعيم مواقعها في أوساط السلافيين في المناطق الغربية من شبه جزيرة البلقان حتى القرن الحادي عشر. ولكن جدية المعارضة أفسحت المجال أمام نشاط البوغوميلية وأنصارها هناك. وساعدت الظروف على قيام المواجهة القوية مع الكاثوليكية خاصة وأن ملوك المجر والأمراء الإقطاعيين وخذوا جهودهم مع كنيسة روما لمهاجمة هذه المناطق وضمها إلى الأراضي المجرية. وقد استطاع الهرطقة أن يضموا إلى صفوفهم العديد من فئات السكان وممثلي الأرستقراطية الإقطاعية وحتى من الحكام والبنات (Ban). ففي أيام البان كولني والبان تينوسلاف - نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر - كانت الكنيسة البوسنية هي الكنيسة الرسمية في البوسنة وعلى الأراضي المجاورة⁽³⁾.

(1) الأخوان كيريل وميثودي: كيريل (827 - 869) من أشهر علماء اللاهوت في بيزنطيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، ابتكر مع أخيه ميثودي أحرف الكتابة السلافية. وقد استخدمها في الصلاة والتبشير والطقوس الدينية. ولكن لم يرق للألمان - لأنه برأيهم لا يجوز استعمال لغة ليتورجية غير مقدسة (العبرية واليونانية واللاتينية فقط) ووصلت الشكوى إلى البابا نيقولا الأول ومن أتى بعده. وبعد موت كيريل، تابع ميثودي رسالته بعد تنصيبه أسقفاً على بانونيا وسيرميا وكان تلاميذه دعاة المسيحية في شبه جزيرة البلقان.

Okic, M. T., Les Kristians (Bogomiles parfaits) de Bosnie d'après des documents turcs medits. Südo.

Pantazopoulos, N. J., Church and law in the Balkan Peninsula during the Ottoman rule. (3) Thessaloniki, 1967.

وامتدت البوغوميلية إلى الأراضي الروسية خاصة إمارة كييف وذلك عن طريق الصلات والروابط الاقتصادية والثقافية مع البلغار. ولكن البوغوميلية لاقت معارضة من قبل قسم من السكان في هذه الإمارة - خاصة وأنهم كانوا يعتنقون المسيحية ويعملون على الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم وممارساتهم الدينية. انتشرت البوغوميلية «الثنائية الفكر» أساساً عبر موروثات من نتائج العصور الوسطى ارتبطت بشكل وثيق بالدين ولكنها لم تكن تحظى باعتراف الكنيسة - مثل الأسفار الملحقة بالتوراة - والتي انتشرت هناك في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر.

ويلاحظ ورود الأفكار البوغوميلية حتى في الأدبيات الروسية الرسمية: الاعتقاد بالنظرة الثنائية إلى العالم، والأسطورة البوغوميلية حول الكون وخلق الإنسان من الشيطان. فالكنيسة الرسمية والسلطة المدنية في روسيا أعربت عن كرههما للهراطقة وازفة إياهم بـ «البلغار» وهذا يظهر استعمال اسم البلغار كهراطقة ويفسر ارتباط الهراطقة الروس بالهراطقة البلغار أو أنهم يتحدرون منهم⁽¹⁾.

وخلال القرن الحادي عشر يرصد ظهور البوغوميلية وحركات هرطقية أخرى مماثلة في بعض الأقطار من أوروبا الغربية خاصة إيطاليا⁽²⁾ وفرنسا وفيما بعد ألمانيا وبلجيكا. وحتى نهاية القرن الثاني عشر انتشرت مذاهب الـ (Cathares)⁽³⁾ و

(1) ي. بيغونوف، تأثير البوغوميلية في انتشار الهرطقة في روسيا، د. أ. كازاتشكوف، حول مسألة الهرطقة البوغوميلية في روسيا القديمة خلال القرن الحادي عشر. المجلة التاريخية، صوفيا 1957، عدد 4، ص (45 - 78).

(2) ه. ا. ل. فيشر، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، تعريب محمد زيادة والسيد الباز العريني. القسم الأول، ص 236. (انتشرت الهرطقات بين الطبقات الفقيرة في ميلانو وحدها سبعة عشر مذهباً هرطقياً وفي إيطاليا بالذات عاشت البابوية بعيدة كل البعد عن الفقير والبائس المحروم).

(3) الكاثريين Cathares، أي المتطهرين، لأن أتباعها دعوا إلى التطهير والتخلص من الشر والخطايا الناجمة عن التعلق بالدنيوية والاستسلام للماديات، وحرّموا على أتباعهم التملك والزواج وأكل لحوم الحيوان وسفك الدماء.

(Albigensis)⁽¹⁾. فقد ظهرت أفكار الهرطقة أولاً في بلاد أوروبا الغربية وكانت وثيقة الصلة بالظروف المحلية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية (كنظيرتها في بلاد البلقان)⁽²⁾، وكان لتأثير مذهب الثنائية الشائع في شبه⁽³⁾ جزيرة البلقان - وبصورة خاصة البوغوميلية وما يتقارب منها مثل مذهب البولسية (Paulicien) أثر كبير في تكوين أفكار الهرطقة الغربية.

فالعلاقات الاقتصادية النشطة بين الامبراطورية البيزنطية والغرب (مع المدن الإيطالية خاصة جنوى والبندقية وبيزا) ساعدت على انتقال الأفكار ومنها أفكار الهرطقة البلقانية أيضاً. ومع قيام الحروب الصليبية في تلك الفترة، توثقت هذه العلاقات أكثر، مما ساعد على خلق ظروف مناسبة وسمح للعالم الغربي بالاطلاع على عقائد الهرطقة.

ولكن الروابط الاقتصادية، الحروب الصليبية لم تكن وحدها، العوامل التي ساعدت على قيام العلاقات بين الشرق والغرب، وإنما كان هناك عوامل أخرى مثل الحروب التي قامت بها الامبراطورية البيزنطية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر

(1) الألبيجنسية (Albigensis)، نسبة إلى Albi - مدينة في جنوب فرنسا. وقد انتشرت الحركة منها وانطلقت إلى باقي مدن الجنوب. وهي عموماً حركة دينية ظهرت أوائل القرن الحادي عشر الميلادي وهي تنكر على الكنيسة الكاثوليكية ورجالها انغماسهم في المفاسد والمبازل؛ قارن:

Walther, D. A., Survey of Recent Research on the Albigensian Cathari. Church History - Wallingford 34, 1965, No. 5, p. 146-177;

Morgen, R. Problèmes sur l'origine de l'hérésie au moyen âge, Revue historique, Paris (2) 236, 1966, p. 1-26. Primov, B. Medieval Bulgaria and the Dualistic Heresies in Western Europe. Étude historique, Sofia 1960, No. 1, p. 84-85.

(3) البولسية أو البولصية - نسبة إلى القديس بولس. قامت بجمال أرمينيا والأناضول في نهاية القرن السابع وانتشرت في سوريا ومنطقة البلقان. حركة دينية ثنائية. لم يعترف أنصارها بشيء من قواعد السلوك إلا ما وجدوا له سنداً في الأناجيل، فرفضوا شروح الآباء الأولين، وأبوا سلطة الكنيسة، وأنكروا السر المقدس في العشاء الرباني، ونبذوا تمجيد الصليب وعبادة العذراء.

مع النورمانديين في جنوبي إيطاليا أولاً وفي شبه جزيرة البلقان فيما بعد. وإن الأراضي البلغارية كانت تحت سيطرة هذه الامبراطورية، وبالتالي فإن البلغار شاركوا في الحملات العسكرية التي قامت بها هذه الامبراطورية إلى إيطاليا خلال عامي 1027 و 1041⁽¹⁾.

وهنا لا بد من القول إنه منذ القرن الحادي عشر وحتى الثالث عشر يسجل وجود العديد من الأحداث والعوامل التي وثقت الاتصال بين منطقة شبه جزيرة البلقان وإيطاليا وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية. وإن حركات الهرطقة الدينية التي عرفتها أوروبا لم تكن بعيدة عن أجواء هذه الصلات وأنها استفادت من خبرات الهرطقة في الشرق.

ولكن ما هو محتوى هذه الحركات الهرطقية؟ وما هي البوغوميلية، وهل تختلف كثيراً عن البولسية؟ وأين تلتقي الأولى والثانية مع غيرهما من حركات الهرطقة؟

البوغوميلية: (Bogomiles) حركة دينية واجتماعية - سياسية بلغارية قامت في القرون الوسطى، وظهرت في بداية القرن العاشر وانتشرت خلال قرون في شبه جزيرة البلقان وإيطاليا وفرنسا ولكن بأشكال مختلفة.

وتأتي هذه التسمية من اسم الكاهن بوغوميل الذي عاش خلال زمن القيصر بطرس. فالبوغوميلية مذهب يرفض أجزاء من الدوغما الكنسية ويستعيض عنها بالتفسيرات الثنائية لأصل العالم وطبيعة الإنسان، وكذلك النضال ضد الكنيسة والنظام الاجتماعي - السياسي الإقطاعي وضد نفوذ الأغنياء وسلطة النبلاء الاستغلالية.

(1) ب. بريموف وغ. باتاكليف، البوغوميلية في بلغاريا وبيزنطية وغربي أوروبا. صوفيا 1967، ص 73 - 90؛

Angelov, D. L'influence du Bogomilisme sur les Cathares. Etude historique, No. 4. Sofia 1968, p. 181-182.

والنقطة الأساسية التي يلتقي فيها البوغوميليون مع الكاثارين (Cathares) ومع المانويين - من قبل - والبولسيين وغيرهم هو الثنائية المميزة. فالثنائية - الازدواجية - تكمن في أساس فكرة الهرطقة ونظرتها إلى خلق العالم وإلى العالم المجرد والمجتمع والسلطتين الدينية والدنيوية والأخلاق الإنسانية.

وشعار الإصلاح - لديهم - يبرز في «أن الاعتراف بالديانة الصحيحة يكون من خلال استعمال الكتب المقدسة ولا حاجة ضرورية لوجود رجال الدين، لأن هذه هي قضية كل ضمير إنساني». وإن العالم الموجود - برأيهم - هو أصل الشر، بداية شيطانية، لأن البداية الخيرة لا تُرى. وإن هاتين البدائيتين في صراع مستمر. وبما أن الكنيسة والثروة وكل سلطة والاحتفالات والأيقونات... مظاهر دنيوية، فإنهم رفضوها. واعتبروا أن المرأة في المجتمع والدين يجب أن تتساوى مع الرجل، وعلى هذا فإنهم لعبوا دوراً في النضال ضد الأسس الإقطاعية في المجتمع.

ولكن ثنائية الهرطقة في القرون الوسطى يمكن تقسيمها إلى نوعين أو تيارين: أحدهما متطرف والآخر معتدل. وجميع الثنائيات تنظر إلى العالم بحسبانه يتألف من قوتين أو بدائيتين أو إلهين: الخير والشر. ويتميزان بصفة الخلود والقوة والمساواة. وأصحاب تيار الاعتدال، يقولون أيضاً بوجود قوتين، ولكنهم يؤمنون بأن الإله الطيب - قوة الخير - له الغلبة والقوة والسلطة. فقوة الخير موجودة منذ الأزل، وهي التي خلقت العالم وستبقى إلى الأبد. أما قوة الشر - بداية السوء أو الشيطان - فإنها ظهرت فيما بعد، وبالتالي لا يمكن أن تتساوى مع قوة الخير لأن لها سلطة محدودة في العالم الأرضي. ولكن في النهاية، فإن ثنائية الاعتدال سوف تصل بها إلى النصر التام لقوى الخير.

إن قيمة البوغوميلية تبدو في كونها اعتقاداً وجد قبل حركة الإصلاح الديني الأوروبي بقرون، وانعكس على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية في بلغاريا خلال القرون الوسطى. لذا لا يمكن أن تعتبر نموذجاً بلغارياً للمانوية والبولسية فقط. لأنه من الناحية الفلسفية، فإن نظرة البوغوميلية إلى ما وراء الطبيعة وإلى الطبيعة تأخذ مكاناً هاماً. وهذا يظهر في شعارات البوغوميلية ورموزها التي

اكتشفت بعدد كبير، خاصة شواهد القبور والنصب البوغوميلية وهي تؤكد على شمسية المركز (Heliocentrique) المحددة في تفسير الكون. وإن المثالية الأنطولوجية للبوغوميليين يعبر عنها في أدبياتهم في ما يسمى «الكتاب السري» و «بحر التبير» وغيرها.

وهكذا فإن هراطقة العصور الوسطى في بلاد البلقان وفي الشرق والغرب اتخذوا مواقف مناهضة للسلطة الدنيوية، لأنهم في البداية رفضوا تدخل الآلهة في الأعمال الدنيوية. وهذا دفعهم لتوجيه النقد الحاد إلى الكنيسة وإلى السلطة الحكومية. فقد هاجموا الأغنياء ودعوا أتباعهم لعدم الخضوع للأسياد، لأنهم يفكرون بأن الإله يكره هؤلاء الذين يخدمون القيصر ويأمرون كل عبد بالتمرد على أسياده. وإنه في كنيسة روما يوجد العديد من البؤساء الذين يموتون من الجوع والعطش والبرد. فالأغنياء في هذه الكنيسة لا يشعرون بوجود هؤلاء وإنما يتركونهم فريسة آهاتهم ومصائبهم. وبالتالي كيف يمكن لإلهة الحب أن تقيم عندهم؟

وهكذا فإن البوغوميلية قادت أوسع نضالات الحركات الاجتماعية. فالبوغوميلية التي ظهرت في بلغاريا إبان العصور الوسطى، وانتشرت في العديد من الأقطار، كان لها تأثير قوي على حركات الهرطقة، التي لعبت دوراً مهماً في التاريخ الأوروبي العام وتركت تأثيرها على النضالات الاجتماعية والسياسية لدى أوسع الفئات الشعبية التي واجهت التعصب الديني للكنيسة الرسمية.

فالبوغوميلية وفي كثير من المناسبات ترفض وجود الكنيسة الرسمية وممثليها وترفض العبادة في المعابد وكذلك الطقوس الدينية المرافقة للديانة المسيحية مثل: العمادة والتناول والاعتراف. وبالتالي فإن البوغوميليون يعلنون بأنهم ضد الرموز المسيحية الأكثر تعبيراً مثل الصليب والأيقونات!!!

فالبوغوميلية والبولسية ظهرت كمذهب يقوم على أساس آراء الممارسة الدينية للمانوية في آسيا الصغرى. والبوغوميليون عرفوا معنى ما يرمز إليه الهلال، وكثيراً

ما وجد على ما تبقى من آثارهم في البوسنة⁽¹⁾ والهرسك، لأنه حسب اعتقاد المانوية فإنّ الهلال يستقبل الصالحين في السماء. وقد وجد البوغوميليون والبولسيون الذين تعرضوا للملاحقة والمطاردة على مدى قرون طويلة، الأمان والاستقرار مع الديانة الجديدة - الإسلام - التي تتناول المسائل الدينية والقضايا الدنيوية.

وعلى أساس ما تقدم، فإن انتشار أفكار الهرطقة في منطقة شبه جزيرة البلقان أثار حالة من عدم الاستقرار والفوضى الدينية، وإن العداء المستحكم ولفترة طويلة مع الكنيسة الرسمية وممثليها أضعف تأثير الفكرة المسيحية في النفوس. كل هذا دفع بهدف التغيير أن يتقدم إلى الأمام ويمهد الطريق أمام انتشار الدعوة الإسلامية.

وفي الختام، لا بد من إبداء بعض التساؤلات: إن ظهور البوغوميلية كحركة وتيار وفكرة برز خلال القرن العاشر الميلادي، أي تقريباً خلال الفترة التي ذهب فيها ابن فضلان إلى بلاد البلغار⁽²⁾، على رأس البعثة التي أرسلها الخليفة المقتدر العباسي - إجابة لطلب بلغار الفولغا الذين بعثوا برسول منهم إلى عاصمة الخلافة، يرجون العون على مقاومة الخزر عليهم وأن ينفذ إليهم من يفقههم في الدين ويعرفهم بشعائر الإسلام «وكانوا قد اعتنقوه في عهد غير بعيد». وبعدها نعلم أن الملك البلغاري اتخذ لقب سيده وولي نعمته وبدأ الصلاة قائلاً: «اللهم اغفر لعبدك جعفر بن عبد الله، ملك البلغار ومولى أمير المؤمنين».

وإذا كان الكثير من أفكار البوغوميلية لا يتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي ويتوافق معها، وإذا كان سكان هذه المنطقة قد تعرضوا لفرض الديانة المسيحية أكثر من مرة آخرها ما قام به ملوك المعجر بمباركة ومساعدة كنيسة روما مباشرة، سبق وأشرنا إليه، فما هي الضمانة أن لا يكون هؤلاء من الذين تناولتهم هذه العمليات؟

(1) ال. سولوفيف، رموز آثار القرون الوسطى في البوسنة والهرسك. الكتاب السنوي للجمعية التاريخية في البوسنة والهرسك رقم 8، عام 1957، ص 31 - 35 (باللغة الصربية).

(2) أنظر بحثنا في مجلة تاريخ العرب والعالم حول «عوامل انتشار الإسلام في البلقان» عدد 141، عام 1993، ص 42 - 53.

وبالتالي لماذا اتخذ البوغوميليون خاصة في البوسنة الهلال شعاراً لهم؟ وحتى على شواهد قبورهم؟ إن هذا كله مجرد تساؤلات، قد يماط اللثام عن حقيقتها يوماً ما. وبالتالي حقيقة البوغوميلية وانطلاقتها من بلاد البلغار، وهل كانت لها انطلاقة أو جذور إسلامية؟